رأي القدس

السودان وخذلان الزعماء العرب

■ ربما يخرج السودان، هذا البلد العربي الذي تتكاثر عليه سكاكين التآمر من كل ناحية، الكاسب الاقل من القمة العربية التي استضافها، وكلفت خزينته حوالي خمسة عشر مليون دولار على الاقل، غير الصداع الامني الناجم عن تأمين الحماية للزعماء العرب، والصداع الاعلامي الذي يسببه وجود حشد هائل من الصحافيين العرب تميزوا عن اقرانهم بالتذمر والشكوى بسبب او بدونه.

السلطات السودانية تحمست لهذا المؤتمر وبذلت جهودا كبيرة لانجاحه بهدف ايصال رسالة واضحة المعاني الى الولايات المتحدة والغرب عموما، وبعض الدول الافريقية، تقول مفرداتها انها غير معزولة، ومدعومة من اكثر من اثنتين وعشرين دولة عربية.

التوقيت مهم للغاية، فالسودان يواجه حاليا خطر تدويل مسألة دارفور، كمقدمة لسلخها عن الوطن الام، وبتدخل من دول غربية، فالمؤامرة تتركز حاليا حول كيفية تفكيك السودان، واعادة صياغة هويته من جديد، وابعاده عن انتمائه العربي، تماما مثلما يحدث مع العراق.

اصدار قرار عن مجلس الامن الدولي يؤيد ارسال قوات دولية الى السودان هو الخطوة الاولى على طريق تنفيذ هذا المخطط، ومثل هذا القرار يذكرنا بسلسلة القرارات التي استصدرتها الادارة الامريكية عن المنظمة الدولية تجاه العراق.

الزعماء العرب خذلوا السودان، وتخلوا عنه في مثل هذه اللحظات الحرجة، ونحن نتحدث هنا عن الذين تغيبوا عن القمة لاسباب غير مبررة على الاطلاق، ونخص بالذكر الرئيس المصري حسني مبارك والعاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز.

الاول، اي الرئيس مبارك، لأن السودان يشكل العمق الاستراتيجي لمصر، وهو خط الدفاع الاول للحفاظ على تدفق مياه النيل التي لولاها لماتت الملايين من ابناء الشعب المصري جوعا وعطشا. وكان من المفترض ان يكون الرئيس المصري، الذي تعلم وهو طفل اهازيج وحدة وادي النيل، ومدى اهمية تحالف البلدين ان لم تكن وحدتهما للحفاظ على وجودهما ومصالحهما المشتركة، كان من المفترض ان يكون الرئيس مبارك اول الواصلين الى الخرطوم. ولكنه للأسف لم يفعل، ودون ابداء الاسباب.

اما الثاني، العاهل السعودي، الذي تشارك بلاده السودان في حوض البحر الاحمر، فيمثل الدولة الاسلامية الاكثر اهمية، والاقوى نفوذا، بحكم وجود المقدسات الاسلامية على ارضها، وامتلاكها ثروات مالية هائلة تقدر بحوالي 140 مليار دولار هي مجموع عوائد النفط السنوية.

الرئيس مبارك لم يذهب الى الخرطوم خوفا على حياته، والملك عبد الله فضل البقاء في الرياض تجنبا لحدوث مواجهة مع الزعيم الليبي معمر القذافي. السببان وجيهان ولكن دعم السودان في ظل هذا الظرف الحرج يحتم ايجاد حلول. فالامن المصري يمكن ان يوفر الحماية لرئيسه بالتعاون مع نظيره السوداني، اما عقدة العاهل السعودي التي تمنعه من الدخول في مواجهة علنية مع الزعيم الليبي تنقلها عدسات التلفزة مثلما حدث في قمة القاهرة، فيمكن علاجها ايضا بجعل الجلسات مغلقة.

امر مؤلم ان تنفض القمة بالطريقة التي انفضت بها، ويخرج السودان خالي الوفاض، وبالحد الادنى من الدعم، في مثل هذا الظرف الحرج الذي يعيشه.

كنا نتمنى لو ان الحكومة السودانية انفقت الملايين التي انفقتها على القمة لايجاد بعض فرص العمل لابنائها، فذلك افيد بكثير، لها وللشعب السوداني، بدلا من ان تذهب هذه الملايين سدى.

سبعة اسئلة واجوبة افتراضية

د. عصام نعمان *

■ العرب في سبات، كذلك معظم المسلمين. ثمة استثناءات قليلة بلا شك. ففي فلسطين وسورية ولبنان والعراق ومصر وايران والخليج حراك محسوس وأحيانا عنيف. لكن من الصعب الآن التكهن بنتائج له محسوسة. من هنا تستبين الحاجة الى التحسب تفاديا لحدوث مفاجآت مقلقة أو مدمرة. التحسّب يتطلب طرح أسئلة افتراضية حول نقاط ساخنة مرشحة لمزيد من السخونة وربما للانفجار، كما يتطلب اجتراح أجوبة من الطبيعة نفسها، أي افتراضية أيضاً. لنأخذ كلا من النقاط السبع على حدة، ونطرح في صددها سؤالاً ونجترح له جواباً، وكلاهما افتراضي حتى اشعار آخر:

فلسطين

السؤال: ما مستقبل حكومة اسماعيل هنية «الحماسية» في ظل استمرار الحصار السياسي والاقتصادي الاسرائيلي والدولي و... الفتحاوي المضروب عليها؟

الجواب: الأرجح ان يستمر الحصار. اسرائيل مصممة على عدم الاعتراف بحكومة «حماس» وعدم تمكينها من الاقلاع. لن تجازف بالضغط عليها حتى حدود اسقاطها لأن لا مصلحة لها في ذلك. يكفي بقاؤها محاصرة، فتحاوياً وأمريكياً وأوروبياً، حتى تعزز دعواها المزمنة بأن ليس ثمة شريك فلسطيني للتفاوض معه. هذه المقولة تشجعها، أياً كانت طبيعة حكومتها المقبلة ورئيسها، على المضي في سياسة الانفراد في تقرير مواقع انسحاب قواتها من الضفة الغربية وفي ترسيم حدودها المفترضة. يبدو ان قيادة حركة «فتح»، ومعها الرئيس محمود عباس، لا تدرك مخاطر الاستمرار في محاصرة حكومة «حماس» وانعكاساتها البالغة السلبية على «الوضع النهائي» للأراضي المحتلة العام 1967 وبالتالي مستقبل الدولة الفلسطينية المرتجاة. لعل مرد سلبية قيادة «فتح» شعورُها بأن تعاونها مع حكومة «حماس» لن يثمر شيئاً في ظل ميزان القوى الحالي، اقليميا ودوليا. فقد سبق لها ان احتكرت السلطة تقريبا أكثر من عقد، فما استطاعت ان تمنع زحف الاستيطان السرطاني، وما تمكّنت من ان تحتفظ لمفاوضات «الوضع لنهائي» ما يمكن التفاوض في شأنه.

الخلاصة المفترضة: صراع مرير بين «فتح» و«حماس» على السلطة والنفوذ وسط ارتياح اسرائيلي مشهود.

سورية

السؤال: ما هو مستقبل النظام السوري وسط الضغوط الأمريكية، وأحيانا الفرنسية، وقيام معارضة له في المنفى مدعومة من أمريكا وأوروبا؟

الجواب: كانت الولايات المتحدة قد طلبت من سورية تغيير سلوكيتها تجاه الوضعين القائمين في العراق ولبنان. تكيّفت دمشق مع الوضع العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي واستجابت لمطلب واشنطن بوقف دعم المقاومة العراقية، الا انها لم تمتثل لارادتها في ما يخص الوضع القائم في لبنان في ظل الوصاية الأمريكية الدولية. اتخذت واشنطن قبل بضعة أشهر قراراً بتغيير النظام السوري، غير ان تفاقم تعثّر سياستها في العراق وتعاظم التحدي الايراني «النووي» حَمَل ادارة بوش على تجميد تنفيذ قرار التغيير، لكنها لم تلغه. دمشق التقطت أنفاسها واستعادت شيئاً من المبادرة، لاسيما لجهة اقناع كل من مصر والسعودية بمخاطر سقوط نظامها ووثوبَ السلفيين الى السلطة ما يجعل البلاد طعمةً لـ«الفوضى الخلاقة»، وبالتالي مرتعاً للسلفيين المتطرفينَ والارهابيين المحترفين.

الخلاصة المفترضة: لن تتأخر أمريكا في محاولة تغيير النظام السوري اذا ما وجدت انه تدبير ضروري في سياق مواجهة كل من التحديين العراقي والايراني.

لبنان

السؤال: هل تنجح أمريكا في عزل لبنان سياسياً عن سورية؟

الجواب: أحسنت الولايات المتحدة استثمار اغتيال الرئيس رفيق الحريري، رحمه الله، على نحو أدى الى اخراج القوات السورية من لبنان، والى اجراء انتخابات نيابية مكّنت حلفاءها شركاء سورية القدامى من التحكم بالسلطة وتمديد استحلابهم خيرات البلاد. ومع تجميد أمريكا قرار تغيير النظام السوري، نشطت مساعي مصر والسعودية لتهدئة الوضع اللبناني في ظل توازن القوى الراهن ودفعه الى تحسين علاقاته مع سورية لتفادي عزله عنها واسقاط نظامها وقذف المنطقة برمتها الى فوضى عارمة.

الخلاصة المفترضة: لا تغيير محسوسا في الوضع اللبناني في المستقبل المنظور، الا اذا قررت أمريكا العودة الى محاولة اسقاط النظام السوري، أو الى خلق أجواء اقليمية مؤاتية لمحاولة نشر الجيش في الجنوب اللبناني من أجل التضييق على حركة المقاومة الاسلامية وشلّها.

العراق

السؤال: هل تؤدي الحرب الأهلية التي يرعاها الاحتلال الأمريكي الى تقسيم العراق ام يستدرك القادة العراقيون أخطارها باقامة حكومة وطنية جامعة تجعل الانسحاب الأمريكي أولوية مطلقة؟

الجواب: وضعت أمريكا نفسها باحتلالها العراق وسوء ادارتها له بين خيارين كلاهما مرّ: مواجهة المقاومة ومنظمات العنف الأعمى وتحمّل نزف بشري ومادي متواصل، أو الانسحاب المبكر ما يعني هزيمة مدويّة وتداعي وجودها ونفوذها في كل أنحاء المنطقة. ادارة بوش قررت البقاء في العراق لتفادي الهزيمة، وتركت قرار الانسحاب الى الرئيس المقبل، أي الى ما بعد العام 2009. هكذا يجد العراقيون، بشتى مكوّناتهم، أنفسهم أمام خيارين: الانغماس في حرب أهلية يرعاها المفوض السامي الأمريكي زلماي خليل زاد مع احتمال انهيار السلطة المركزية وانقسام العراق إلى ثلاث دويلات، كردية وسنية وشيعية، او توصّل بعض قادة أهل الشيعة، بموافقة ايران، وأهل السنة وربما بعض الكرد أيضاً الى اتفاق على ضرورة اقامة حكومة وطنية جامعة تعتبر الانسحاب الأمريكي المبكر أولوية مطلقة، وتقوم بالجدية اللازمة بتعديل الدستور لاعادة بناء السلطة المركزية بما في ذلك الجيش وقوى الأمن الداخلي على نحو وطني متماسك من اجل النهوض بمسؤولية الأمن والنظام وبالتالي تسريع انسحاب القوات الأمريكية وتوابعها.

الخلاصة المفترضة: مزيد من التخبط والتعثر الأمريكي الى ان يحدث واحد من احتمالين: توصل واشنطن الى صفقة مع طهران تجري بموجبها مقايضة تخلي ايران نهائيا عن مطلب تخصيب اليورانيوم مقابل موافقة واشنطن على جعلُ العراق منطقة نفوذ ايرانية شبيهة بما كان عليه وضع لبنان في ظل الوصاية السورية من العام 1976 لغاية العام 2005، او دعم طهران للحكومة الوطنية العراقية الجامعة وبالتالي دعم المقاومة العراقية لاكراه واشنطن على الانسحاب من العراق من دون أن تخلفّ وراءها قواعد عسكرية وطبقة سياسية عميلة لها أو وكيلة عنها.

مصر

السؤال: من هو المرشح المرجح لتغيير النظام: الاخوان المسلمون أم الجيش؟

الجواب: يبدو النظام المصري ضعيفاً للغاية من الناحية السياسية. فالحزب الوطني الحاكم اخفق في الانتخابات الأخيرة، واضطر الى ضم عشرات النواب المستقلين الى كتلته البرلمانية لتكون له أكثرية فاعلة. ومع ذلك يبقى النظام، اعلاميا وسياسيا، مكسر عصا لجميع الأحزاب والقوى المعارضة التي لم تترك له، بفضل حملاتها العنيفة المتواصلة، أية هيبة أو فعالية. واذْ يرشّح الاخوان المسلمون أنفسهم للحلول محل نظام مبارك المترهل، يتوقع بعض المراقبين ان تحول قيادات الجيش المصري، مرةً أخرى كما في العام 1952، دون امساك الاخوان المسلمين بدفة السلطة، كون الجيش تاريخيا العمود الفقري للدولة والمنبت الخصب والأوجه لقياداتها السياسية. أياً من كانت القوة المغيِّرَة، وبصرف النظر عن موقف أمريكا من كلا القوتين، فان ثمة نتيجة بالغة الأهمية سينتهي اليها حدث التغيير هي انعكاسه بالضرورة، عاجلاً أو آجلا، على سائر دول المنطقة بالنظر الى موقع مصر الاستراتيجي وثقلها السياسي ودورها القيادي في شتى مراحل التاريخ المعاصر.

الخلاصة المفترضة: ان ضعف نظام مبارك يحول دون قيامه بأي دور فاعل في المنطقة. وهو، بسبب اخفاقه في حل مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية، سيضطر عاجلاً أو آجلا الى أن يخلي مكانه لقوة وطنية وازنة ومغيِّرَة.

ايران

السؤال: هل تصبح ايران، خصوصا بعد انتزاعها حق تخصيب اليورانيوم، أول دولة اقليمية مركزية ذات شأن بعد انهيار الامبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى؟

الجواب: تخوض ايران صراعاً مريراً مع أمريكا التي تعارض بشدة امكان تحولّها قوةً اقليمية مركزية. غير ان ايران قادرة على الخروج منتصرة من الصراع اذا أخفقت أمريكا في عقد صفقة مع الصين وروسيا لتقاسم النفوذ والنفط والأسواق في العالم، لاسيما في القارة العربية والقارة الآسيوية. يبدو ان أمريكا تستهول خوض حرب مع ايران لتدمير بنيتها الصناعية، بما في ذلك منشآتها النووية، نظراً لتكلفتها السياسية والاقتصادية الباهظة. من هنا تنبع أهمية الصفقة التي تسعى الى انجازها مع الصين وروسيا.

الخلاصة المفترضة: الصراع بين أمريكا وايران مفتوح على احتمالات شتى، وقد يأخذ منحى استراتيجيا، أي طويل المدى، وقد يتطور الى صراع اسلامي غربي، تصاحبه تحديات وصراعات أخرى في المنطقة العربية، تتأتى عنها بالضرورة متغيرات لا يمكن تحديدها او حصرها في الوقت الحاضر.

الخليج

السؤال: هل تبقى بلدان الخليج بمأمن من تداعيات الصراع الأمريكي الايراني أو الصدام الاسرائيلي الايراني؟

الجواب: قد تشعر اسرائيل بأن أمريكا لا تشاطرها نظرتها السلبية الى انعكاسات القدرة النووية الايرانية على أمنها، فتحاول بدعم من واشنطن او بمعزل عنها تدمير ما يتيسر لها من منشآت ايران النووية وبنيتها الصناعية. ان أحداً لا يستطيع أن يقدّر بدقة حجم ردة الفعل الايرانية الثأرية ومداها، وما اذا كانت ستقتصر على اسرائيل أم انها ستتناول أيضا، اختياراً أو اضطراراً، صناعة النفط بشتى وجوهها وبنياتها في بلدان الخليج المنتجة للنفط والغاز. من هنا تنبع أهمية عدم اعتماد سياسة خليجية معادية لايران في صراع لا ناقة لأهل الخليج فيه ولا جمل. ولعل مخاطر هذا الصراع وانعكاسها السلبي على بلدان الخليج قد يدفع بها منطقيا واستباقيا الى التضامن فالاتحاد للضغط على أمريكا من اجل تجنب اندلاع نار الصراعات الحربية في المنطقة. بل قد تجد بلدان الخليج نفسها مضطرةً الى التقرب برفق واعتدال من الصين والهند، وهما من ابرز زبائنها في استيراد النفط، بغية اقامة لون من ألوان التوازن في النفوذ والعلاقات الاقتصادية بينهما وبين أمريكا الساعية أصلاً الى تقليص اعتمادها على نفط الشرق الأوسط.

الا سئلة المطروحة افتراضية، وكذلك الأجوبة. لكن الصراع قائم وحار وخطير وليس افتراضيا أبداً.

* سياسي وكاتب لبناني

حماس ومواجهة الحقائق

محمد كريشان

■ بمجرد نيل ثقة المجلس التشريعي ستجد حكومة حركة «حماس» نفسها في اليوم الموالي مباشرة أمام مسؤوليات جسيمة لا يمكن للمرء إلا أن يتمنى لها التوفيق في تحمل أعبائها سواء اتفق معها أو اختلف لأن نجاح حماس سيستفيد منه الجميع في الساحة الفلسطينية ، مناصروها وخصومها على حد سواء، تماما كما الفشل سينوء بوزره الجميع أيضا، لكن ذلك لا يعني أن تعفى الحركة من بعض الملاحظات سواء قيلت في سياق الحرص على نجاحها أو التنكيد المبكر عليها.

الحكم سيكون منذ اليوم فصاعدا على حماس كحكومة وليس على حركة ، على الممارسة وليس على المواقف رغم أهميتها فحتى البرنامج السياسي للحكومة الذي نشرت خطوطه الكبرى لم يتم التوقف عنده طويلا بالقدر الذي سيتم فيه التوقف عند كل كبيرة وصغيرة عند التطبيق. ومع أن هذا البرنامج قد يكون تضمن من الأمنيات أكثر مما تضمن شيئا آخر إلا أن عديدين، متربصين كانوا أو غيورين أو مراقبين محايدين، سيعودون لهذا البرنامج بالتأكيد في محطات مختلفة من عمل حكومة إسماعيل هنية.

لنأخذ على سبيل المثال لا الحصر نقطتين : الأولى «الحق في مقاومة الاحتلال» الوارد في البرنامج والذي أكد قادة الحركة أن لا تراجع عنه أو مساومة ، هو بلا شك حق لا أحد منصفا يجادل فيه ولكن مربط الفرس الآن عمليا هو كيف سينفذ، بمعنى هل يمكن لحماس أن تكون حكومة مسؤولة تبحث عن مكانة دولية بل ولا تمانع في إجراء حوار مع اللجنة الرباعية للبحث في «إنهاء النزاع» كما جاء في خطاب رئيس الوزراء المكلف أمام المجلس التشريعي الاثنين أن تترك لجناحها العسكري «كتائب القسام» حرية القيام بعمليات في العمق الاسرائيلي وتتبناها ؟! والأهم تتحمل تبعاتها التي جربت سابقا؟! وإن لم تفعل فكيف ستبرر ذلك لأنصارها خاصة إذا ما تصاعد العدوان الاسرائيلي في مرحلة من المراحل؟! وماذا لو أنها التزمت التهدئة وخرقتها فصائل أخرى، هل ستدينهم وتلاحقهم أم لا ؟! إن فعلت فهي تعيد تجربة الأغلبية السابقة التي شهرت بها حماس وإن هي تغاضت أضاعت سيطرتها أو صورتها أو كليهما . قد يقول قائل ولكن الزعيم الراحل ياسر عرفات فعلها من قبل فكان يضع رجلا هنا ورجلا هناك. صحيح ولكن ذاك كان عرفات بكل تاريخه و «فهلوته» في تخريج الأمور ومع ذلك انظر كيف انتهى به المطاف بعد أن قاطعه من ظنوا أنه خدعهم ، بل وصار الأقربون يتحرجون حتى من مجرد الاتصال به هاتفيا، هذا عرفات بكل ما مثله طوال أربعين عاما فكيف بحركة ينظر إليها من الآن بريبة وصنفها الأوروبيون والأمريكيون ك«ارهابية»! فضلا عن أن ضرورة بسط الحكومة لسلطتها يفترض إنهاء ما يعرف بفوضى السلاح وربما حتى جمعه على الأقل من جهات مصرة على إرباك عمل حماس، هل ستجد الحكومة نفسها في نفس موقع من شهرت بهم من قبل وشككت في نواياهم؟!

النقطة الثانية هي التعاطي مع مشاريع التسوية سواء المطروحة حاليا أو التي سبق أن اتفق بشأنها. ماذا ستفعل حكومة هنية؟ إن ما ورد في البرنامج من أن هذه الحكومة ستتعامل معها «بقدر كبير من المسؤولية» وهي ذات العبارة التي كررها رئيس الوزراء المكلف في خطاب الاثنين لا تعني في الحقيقة شيئا للأسف. القدر الكبير من المسؤولية في عرف المجتمع الدولي الحالي أن توافق عليها دون لف ودوران لكن هذا القدر الكبير من المسؤولية تعني من منظور مناصري حماس والمؤيدين لها العمل على اسقاطها لما فيها من حيف !!

حكومة حماس مدعوة للانصراف للنهوض بكثير من نواحي المعيشة اليومية المتدهورة للفلسطينيين في الضفة والقطاع وهذا أمر يتطلب بالضرورة فترة تهدئة مع الاحتلال الاسرائيلي سواء باتفاق واضح أو ضمني، كما أن حكومة حماس مدعوة لمحاربة أوجه الفساد المختلفة وانهاء مظاهر استغلال النفوذ وغيره من مظاهر العبث بالقانون وهذا كله جيد ولكنه في المحصلة سيجعل حكومة حماس تتوجه في النهاية إلى أن تكون حكومة اصلاح داخلي مطلوب بإلحاح مما قد يدفعها إلى «أخذ إجازة» في موضوع المقاومة. هذا التوجه قد تدعمه غالبية الشعب الفلسطيني وقد يجد فيه آخرون مادة لتسجيل النقاط على الحركة التي بتموقعها الجديد قد تجد نفسها في النهاية أقرب إلى الرئيس محمود عباس من الغاضبين الذين صوتوا لها. هذه المعادلة قد لا تكون سيئة في النهاية ولكنها بالتأكيد ستنزع الكثير من الهالة النضالية التي تريدها حماس لنفسها أو يريدها لها كثيرون.

درس من الصين لايران في الحوار مع امريكا

د. سعيد الشهابي *

■ لم يتضح بعد أفق المفاوضات المزمعة بين الجمهورية الاسلامية الايرانية والولايات المتحدة الامريكية، بل سعى الطرفان للتعتيم على تفصيلاتها وفضلا التحدث بلغة تحتوي على دبلوماسية واضحة، ولا تخلو من لغة التخاطب المعتادة بين الطرفين التي يطغى عليها الغمز واللمز والاتهام. ويمكن القول ان هذه المفاوضات ربما تكون الاكثر تعقيدا وصعوبة في تاريخ العلاقات بين البلدين، كما انها ليست الاولى بين واشنطن وطهران، فقد سبقتها مفاوضات عديدة في مراحل سابقة وبانماط متباينة. ففي أزمة دبلوماسيي السفارة الامريكية في طهران، قامت الجزائر بالوساطة بين الطرفين، ونجم عن ذلك اطلاق سراح الدبلوماسيين عشية خروج الرئيس جيمي كارتر من البيت الابيض بعد فشله في الانتخابات الرئاسية لأسباب من اهمها ازمة السفارة. وفي ذروة الحرب العراقية ـ الايرانية حدثت مفاوضات مباشرة وغير مباشرة بين طهران وواشنطن، وقيل وقتها ان روبرت مكفارلين، مستشار الامن القومي دخل في مفاوضات مع ايران ادت الى تزويد طهران ببعض الصواريخ في مقابل اموال وجهتها ادارة الرئيس رونالد ريغان لدعم قوات الكونترا التي كانت في حرب عنيفة مع النظام الساندينى في نيكاراجوا. جاء ذلك في اثر قرار من الكونغرس في 1983 بمنع وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أيه) او اية جهة امريكية عن تقديم الدعم لقوات الكونترا. فجاءت الصفقة مع ايران لتجاوز قرار المنع الصادر عن الكونغرس. وتمت مفاوضات اخرى غير مباشرة بين الطرفين في وقت لاحق حول الاموال الايرانية المجمدة لدى الولايات المتحدة منذ قيام النظام الاسلامي بطهران في 1979. كانت تلك الممتلكات تقدر في بداية الامر بثمانية مليارات دولار، ولكنها تضاعفت بمرور الوقت، وما تزال تلك الاصول مجمدة وان كانت واشنطن قد دفعت بعضا منها بعد قرارات قضائية من المحاكم الامريكية.

ان استمرار المفاوضات غير المباشرة بين الطرفين يشير الى عمق العلاقات التي تربط البلدين قبل الثورة الاسلامية التي قادها الامام الخميني ضد نظام الشاه في 1979، وصعوبة تفكيكها الا من خلال التفاوض. وعلى مدى الفترة الماضية منذ 1979 بقي الطرفان على طرفي نقيض ازاء كافة القضايا موضع اهتمام البلدين، ولم تضمر مساحات الاختلاف بمرور الوقت، بل ازدادت توسعا وتعقيدا. فالايرانيون يعتبرون الامريكيين داعمين لنظام الشاه حتى النهاية، وشركاء في سياساته القمعية والاقتصادية، وبالتالي فعليهم الاعتذار للشعب الايراني عما فعلوه، كما ان عليهم التوقف عن التدخل في شؤونهم الداخلية والتخلي عن السعي لاسقاط النظام، ومن ذلك تخصيص 75 دولارا لدعم المعارضين للنظام قبل بضعة شهور. اما الامريكيون فينظرون الى ايران كدولة اسلامية دينية توفر دعما معنويا على الاقل للمجموعات والاتجاهات المناوئة للهيمنة الامريكية في المنطقة، وتتبنى سياسات تتناقض مع المصالح الامريكية، وان موقفها الرافض للاعتراف بالكيان الاسرائيلي يتناقض تماما مع السياسة الامريكية الداعمة بدون حدود لقوات الاحتلال الاسرائيلية. وعلى مدى اكثر من ربع قرن استمر التوتر في العلاقات بشكل تصاعدي مروع. ولم تهدأ المهاترات الا خلال ازمة الكويت، حيث التزمت ايران موقف الحياد في الحرب التي شنها الحلفاء ضد العراق لاخراج قواتها من الكويت. طهران كانت في موقف حرج، فهي لا تريد دعم نظام صدام حسين، ولا ترغب في مشاركة الولايات المتحدة في خلافاتها مع العراق، فالتزمت موقفا حياديا خلال الازمة. وبصعود الرئيس الايراني الحالي، أحمدي نجاد الى رئاسة الجمهورية الاسلامية ازداد الوضع توترا بين واشنطن وطهران، على خلفية الخلاف بين واشنطن وطهران حول المشروع النووي الايراني، وهو خلاف بدأته واشنطن قبل اربعة اعوام، واثارته على كافة المستويات والدوائر الدولية.

لقد كان أمرا مفاجئا الاعلان، على لسان الدكتور علي لاريجاني، عضو مجلس الامن القومي، عن رغبة ايران في الدخول في تفاوض مع الولايات المتحدة حول الوضع في العراق. وربما جاء ذلك باقتراح من بعض الرموز السياسية العراقية بعد ان بدا عجز واشنطن عن السيطرة الامنية على الوضع في ذلك البلد. فالحرب الانكلو ـ أمريكية فشلت حتى الآن في احتواء ظاهرة الارهاب التي تفاقمت بشكل خطير، واصبح الشعب العراقي يدفع ثمنها بسقوط اكثر من خمسين قتيلا يوميا. الامريكيون وجدوا في العرض الايراني فرصة للدخول في «تفاوض» حول الوضع العراقي مع ايران، بعد أكثر من ربع قرن من العداء. ويبدو ان الايرانيين يسعون من هذا التفاوض لتحقيق عدد من الامور: اولها المساعدة وتقديم الدعم للعراقيين خصوصا في المسألة الامنية، ثانيها التعرف على نفسية الامريكيين وأفق عملهم السياسي وتطلعاتهم الاستراتيجية بشكل مباشر وليس عبر وسطاء. ثالثها: توسيع دائرة التفاوض ليشمل المشروع النووي الذي وصل الى طريق مغلق. وتجدر الاشارة الى ان واشنطن اصبحت تدرك اكثر من اي وقت مضى عدم قدرتها على فرض القرارات الدولية التي تريدها بدون توافق من الدول الاعضاء بمجلس الامن الدولي. فبرغم سياسات التهديد والوعيد والترغيب، لم تستطع تحقيق نصاب يضمن لها نجاح مساعيها المتواصلة لاستصدار قرار دولي عن مجلس الامن يهدد ايران بفرض عقوبات اقتصادية. والواضح ايضا ان بريطانيا ما تزال مهندسة القرارات الدولية، وانها قادرة على «اقناع» واشنطن بالموافقة او الرفض على اي من مشاريع التقارير التي تقدم لمجلس الامن الدولي. وفي الايام القليلة الماضية تواصلت الضغوط الغربية على كل من روسيا والصين للموافقة على مشروع قرار أعدوه ضد ايران، يهدد بالحصار الاقتصادي اذا لم تتوقف ايران عن مشروعها النووي، او على الاقل وقف عمليات التخصيب التي بدأتها ايران في منشآت «ناتنز» بعدما تأكد لها تلكؤ واشنطن في تقديم بدائل عملية للتخلي عن التخصيب.

ولكن بالرغم مما قيل حول التفاوض الامريكي ـ الايراني المختص بالنظر في المسألة العراقية، فان احدا لا يصدق ان ينحصر التفاوض في هذا الموضوع، في الوقت الذي يجتمع فيه اعضاء مجلس الامن بشكل متواصل على امل استصدار قرار يدين ايران. وربما تأمل ايران في ان يكون التفاوض حول العراق مدخلا لتفاوض بعيد المدى مع الولايات المتحدة الامريكية حول مشروعها النووي، وهو امر مستبعد تماما. فواشنطن لن تقبل بذلك المشروع، بل ستبذل قصارى جهدها للقضاء عليه، خصوصا في ضوء التراجعات السياسية لسياساتها في المنطقة والعالم، وصعود التيار الاسلامي في الدول الاسلامية بوتيرة مغايرة لتوقعاتها.

وحتى في العراق الذي قامت باسقاط نظامه، اصبحت تواجه واقعا سياسيا لم تتوقعه، بصعود الاسلاميين الى السلطة وفشل المحسوبين عليها. ولذلك فهي لا تكف عن ممارسة الضغوط على العراقيين لمنع استقرار البلاد في ظل حكومة يتميز اغلب افرادها باسلاميتهم. وثمة اعتقاد بان التداعي الامني في العراق انما هو بتشجيع من قوات الاحتلال لايصال الشعب العراقي الى حالة اليأس والغضب بسبب استمرار الاعمال الارهابية، والقبول بدور امريكي اكبر في العملية السياسية. وما حادثة الاعتداء الامريكي هذا الاسبوع على احد المساجد الشيعية وقتل اكثر من ثلاثين شخصا الا حلقة في مسلسل الشد والجذب الذي تمارسه واشنطن مع الاتجاهات السياسية العراقية.

وثمة حقائق يجدر بالايرانيين ان تكون واضحة امامهم. اولها ان القضاء على مشروعهم النووي هدف استراتيجي امريكي تحركه الاصابع الصهيونية بشكل واضح، ثانيها: انهم اذا كانوا يهدفون لكسب بعض الوقت في ما يتعلق بالتحركات حول المشروع النووي، فان الامريكيين يصرون على التوصل لموقف دولي من خلال مجلس الامن الدولي يسمح لهم بالتدخل العسكري لاحقا فيما لو اخفقت محاولات اقناع ايران بوقف مشروعها، ولم تتوقف اتصالاتهم باعضاء مجلس الامن خصوصا روسيا والصين لحثهم على التخلي عن معارضتهم الخطة الامريكية. ثالثها: ان امريكا لن ترضى عن ايران يوما، حتى لو اذعنت لمطالبها. فليبيا التي اقدمت على خطوتين غير مسبوقتين في العامين الماضيين، ما تزال على القائمة الامريكية للدول الراعية للارهاب. الخطوتان هما التخلي عن المشروع النووي بشكل كامل وتقديم كافة الوثائق والمتعلقات بشكل رسمي الى واشنطن، والاعتراف بمسؤوليتها عن حادثة لوكربي ودفع ما يقرب من ثلاثة مليارات دولار لعائلات الضحايا الامريكيين. ويتوقع ان تشمل القائمة الامريكية التي ستصدر الشهر المقبل ليبيا وكذلك السودان كدولتين راعيتين للارهاب الدولي، برغم كل ما قدمتاه من تعاون لواشنطن. ثالثا: ان الولايات المتحدة سائرة في طريق محاصرة الجهات الاخرى الرافضة لسياساتها مثل حماس وحزب الله. فقد جمدت الخزانة الامريكية أموال محطة المنار الفضائية التلفزيونية واذاعة النور والشركة الأم وهي المجموعة اللبنانية للاعلام قائلة انها سهلت أنشطة حزب الله الذي تعتبره وزارة الخارجية الامريكية منظمة ارهابية. ويحظر الاجراء الذي اتخذته وزارة الخزانة التعامل بين الامريكيين والمنظمات المصنفة على انها إرهابية بالاضافة الى تجميد أي أصول قد تكون لهم لدى جهة خاضعة لولاية القانون الامريكي. وفي الوقت نفسه بدأت واشنطن التحرك ضد حزب الله في لبنان للتخلي عن سلاحه، وذلك في اطار السياسة الامريكية لتهميش كافة القوى التي تعارض سياساتها في المنطقة، ولضمان حماية امن «اسرائيل» بشكل اكبر. كما تتحرك واشنطن لمحاصرة حركة حماس التي اعلنت حكومتها الاسبوع الماضي وأكدت التزامها بسياساتها التي انتخبها الفلسطينيون على اساسها، وقد تضغط على ايران للتوقف عن دعم هاتين الحركتين كشرط لمواصلة الحوار، والتوصل الى نتائج فضفاضة.

ثمة من يعتقد ان امريكا ربما قررت القيام بمفاصلة تدريجية مع الكيان الاسرائيلي والتوجه للتعاون مع الدول الاسلامية، ابتداء بايران. وهذا تبسيط لمسألة معقدة وتاريخ طويل من التلازم السياسي بين واشنطن وتل أبيب. والتقارب مع الهند وتوقيع اتفاقات نووية معها، يكشف جانبا مهما من الاستراتيجية الامريكية في العالم، وهو استعداد واشنطن للتعاون مع كافة دول العالم على حساب علاقاتها مع الدول العربية والاسلامية، وان اية علاقات مع هذه الدول منوطة بتطوير العلاقات مع «اسرائيل» وازالة كل ما يمكن ان يضر بالمصالح الاسرائيلية وامن الكيان الصهيوني. مشكلة الولايات المتحدة انها لا تريد ان تعترف باخفاقاتها السياسية والعسكرية والامنية. وكما ذكرت الباروينة شيرلي ويليامز الاسبوع الماضي، في حديثها خلال النقاش البرلماني حول الاسلام والغرب بالبرلمان البريطاني، فان الغرب «لم يتدخل لوقف الحرب بين العراق وايران، بل دعم العراق لاطالة امد الحرب، وانه لا يعترف بدور ايران في مواجهة حركة طالبان، ولا ينظر بموضوعية الى مغزى طلب السفير الامريكي في بغداد مساعدة ايران للمساعدة لمنع الحرب الاهلية في العراق». ولا شك ان تدخل بعض الزعامات العراقية قد فتح المجال امام واشنطن لبدء حوار مع ايران، ولكن نجاح ذلك الحوار او فشله يتوقف على مدى استعداد الطرف الامريكي للاعتراف بالاخطاء التي ارتكبها في مناطق كثيرة خصوصا في العالم الاسلامي، والتي أدت الى عزلة واشنطن على مستوى شعوب العالم. وليس معلوما بعد ما اذا كانت اللهجة التصعيدية التي استعملها الرئيس الايراني احمدي نجاد بعد فوزه العام الماضي في الانتخابات الرئاسية، عاملا في احداث بعض التغيير في ذهنية الساسة الامريكيين؟ ام ان التصعيد من الجانب الايراني كان تكتيكا للدخول في الحوار مع «الشيطان الاكبر» الذي كان يعتبر من الممنوعات منذ قيام الثورة الاسلامية في ايران. المرشد الاعلى للثورة الاسلامية، آية الله العظمى السيد علي خامنئي، اشار الى ذلك في خطابه بمناسبة عيد النوروز الاسبوع الماضي بقوله: «إذا كان ذلك يعني فتح المشهد للامريكيين الماكرين للاستمرار في استفزازهم، فإنه سيتم منع المفاوضات معهم بشأن العراق»، وقال إن الاجتماع مع الامريكيين سيمكن طهران من إبلاغ واشنطن بأن عليها الرحيل من العراق والسماح للعراقيين بحكم أنفسهم بلا عوائق.

الحوار المزمع بين طهران وواشنطن يمثل تحديا لطرفين يقفان على طرفي نقيض منذ اكثر من ربع قرن، ويتبادلان الاتهامات بلا حدود، ولا يخفيان العداء أحدهما للآخر. انه مفاجأة الموسم كما يقال، ويمكن اعتباره أكبر انقلاب في الدبلوماسية الامريكية منذ زيارة نيكسون للصين في 1972، في ذروة الحرب الباردة. والحوار المزمع مع طهران، يأتي ايضا في ذروة حرب باردة لم تتوقف بين الجانبين. زيارة نيكسون كانت بداية المشاكل للصين، ولكنها لم تسق